التداوليـــة الحجاجية والدرس اللســـاني الحديث (القرآن الكريم أنموذجا)

د. خليفة أبوبكر عبد القادر الكندرو ـ كلية الآداب والعلوم المرج
جامعة بنغـــــازِي
Khlifaalkndro77@gmail.com

الملخّـــــــــص :

لا شكّ أنّ الدّراساتِ اللســانيــةَ الحديثةَ تتطــوّرُ في شتى الجوانبِ لاسيما الدّراسات التداولية الحجاجية، فهي من أحــدث الدراسات اللسانية والخطابية التي تحاول الوصول إلى كيف تقــوم النصوص بعملية الإقناع؟ ولماذا تكون بعض النصوص مقنعة وأخرى تقل درجة إقناعها عن غيرها؟ وما أهم الوسائل اللسانية والبلاغية التي تستعمل في الحجاج؟

والتداولية ـ كما هو معرف عند دارسي اللسانيات ـ هي العلم الذي يدرس علاقة العلامات بمسؤوليتها، والحجاجيـــة هي آلية تداولية حديثة تســمّى بالبلاغـــة الجديدة، ولكنها تملك جذورا ضاربة في القدم منذ عهد اليونان، وهدف الحجاجية التأثير في المتلقــي إما لتدعيم موقفه، وإما لتغيير رأيه وتبني موقف جديد.

وقد حاول البحثُ أن يجيبَ عن عدةِ أسئلةٍ وهي:

ما الفرق بين الحجاج والجدال والمناظرة؟ وما علاقة التداولية بالحجاج؟ ، وهل عرف النقد العربي قديما الحجاج والتداولية، أم أنهم تأثروا بالدرس اللساني الحديث؟ كيف تناول القرآن قضايا الحجاج؟

وسيكون البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحيـــــة : التداولية والحجاج في اللسانيات، أنواع الحجاج في القرآن، حجة التماثل، حجة التأطير، حجة السلطة، حجة الافتراض المشترك، حجة التكرار.

Summary

There is no doubt that modern linguistic studies are developing in various aspects, especially pragmatic and argumentative studies, as they are among the most recent linguistic and rhetorical studies that attempt to find out how texts carry out the process of persuasion? Why are some texts convincing and others less convincing than others? What are the most important linguistic and rhetorical means used by pilgrims?

Pragmatics - as it is defined by linguistics scholars - is the science that studies the relationship of signs to their responsibility. Argumentation is a modern deliberative mechanism called new rhetoric, but it has ancient roots dating back to the Greek era, and the goal of argumentation is to influence the recipient either to strengthen his position, or to change his mind and adopt a new position.
The research attempted to answer several questions:
.What is the difference between arguments, arguments, and debate?
.What is the relationship between pragmatics and pilgrims?
.Did Arab criticism in the past know pilgrimage and pragmatics, or were they influenced by modern linguistic studies?
.How did the Qur'an address the issues of pilgrims?
The research will consist of an introduction, two sections, a conclusion, and a list of sources and references.
Keywords: pragmatics and arguments in linguistics, types of arguments in the Qur'an, argument of similarity, argument of framing, argument of authority, argument of common assumption, argument of repetition.

المقدمـــــــــة:

لا شـــكّ أنّ الدراساتِ اللسانيةَ الحديثةَ تتطورُ في شتى الجوانبِ لاسيما الدراسات التداولية الحجاجية، فهي من أحدث الدراسات اللسانية والخطابية التي تحاول الوصول إلى كيف تقوم النصوص بعملية الإقناع؟ ولماذا تكون بعض النصوص مقنعة وأخرى تقل درجة إقناعها عن غيرها؟ وما أهم الوسائل اللسانية والبلاغية التي تستعمل في الحجاج؟

والتداولية ـ كما هو معرف عند دارسي اللسانيات ـ هي العلم الذي يدرس علاقة العلامات بمسؤوليتها. والحجاجية هي آلية تداولية حديثة تسمى بالبلاغة الجديدة، ولكنها تملك جذورا ضاربة في القدم منذ عهد اليونان، وهدف الحجاجية التأثير في المتلقي إما لتدعيم موقفه، وإما لتغيير رأيه وتبني موقف جديد.

وقد حاول البحثُ أن يجيبَ عن عدةِ أسئلةٍ وهـــي:

ما الفرق بين الحجاج والجدال والمناظرة؟ وما علاقة التداولية بالحجاج؟ وهل عرف النقد العربي قديما الحجاج والتداولية، أم أنهم تأثروا بالدرس اللساني الحديث؟ كيف تناول القرآن قضايا الحجاج؟

وسيكون البحث في مقدمة ومبحثين وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية : التداولية والحجاج في اللسانيات، أنواع الحجاج في القرآن، حجة التماثل، حجة التأطير، حجة السلطة، حجة الافتراض المشترك، حجة التكرار.

المبحث الأول ـ التداوليـــة والحجاج في اللســـانيات:

لا تكاد تخلو كتب التراث العربي الإسلامي وغيرها من تداول مصطلح الحجاج أو الاحتجاج أو المحاجة في عدة مجالات، وفي عدة علوم، وخصوصا في المسائل ذات الطابع الفكري والفلسفي التي كثيرًا ما يعتريها الخِـــلاف في وجهات النظـــر والتأويل، هكذا نجده مستعملا في علوم شتى نحوا، ولغة، وقراءة، وحديثا، وفقها، وأصولا، ومنطقا، وفلسفة... لذا فقد كثرت التعاريف حول مفهوم الحجاج "ودارت حول عناصر موضوعية وبنائية ووظيفية شتى"[1] ، فميدان الحجاج واسع، فتحت له أبواب البحث والدراسة لارتباطه بعلوم كثيرة.

وكان لعلم البلاغة الدور في إبراز أهمية الحجاج أثناء التخاطب؛ ذلك أنها ترتكز على جانبين اثنين في الخطاب هما: البيان، والحجاج لغاية إقناع المستمع.

1- الحِجاجُ في التراث العربـــــي :

الحجاج والمحاججة مصدر للفعل "حـــاجّ "، وورد في المعاجم العربية ومنها لسان العرب لابن منظور أن "حاججته أحاججه محاجا ومحاججة حتى حججته: أي غلبته بالحجاج التي أدليت بها، والمحجة: الطريق، وقيل: جادة الطريق... ، والحجة: البرهان، قيل: الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محجاج أي جَدِل. وقال الأزهري: إنما سميت حجة لأنها تحجّ أي تقصد، لأن القصد لها وإليها.

وعلى هذا يكون الحجاج دائرا حول: التخاصم والتنازع والتغالب ، واستعمال الوسيلة المتمثلة في الدليل والبرهان، أو هو: النزاع والخصام بالأدلة والبراهين والحجج، فالمحاجج يشترك مع الطـــرف الآخر في نشاط ذي طبيعة فكرية تواصلية، يعمد فيه إلى استعمال الدليل والبرهان لغاية معينة أو مقصودة لذاتها أثناء الحجاج، فيكون مرادفا للجدل حسب ابن منظور: "مقابلة الحجة بالحجة" [2]

2- الحِجاجُ اصطلاحا : الحجاج ذو مفهوم عائم يصعب حصره والإحاطة بـــه، فهو يتميز بكثرة الحقول المعرفية التي تتناوله " إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية، والبلاغية التقليدية، وفي الدراسات القانونية والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة"[3]

إن الباعث أو المحرك للحجاج هو الاختلاف، فالحجاج لا يكون فيما هو يقين إلزامي، فنحن لا نخرج في أمر صارم واجب النفاذ، وإنما يكون الحجاج فيما هو مرجّح وممكن ومحتمل، كما أن الأدلة التي تقدمها المحاجة ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبت أو تنفي، بحيث تقرر ما تقـــرره، أو تنفي ما تنفيه على سبيل الحقيقة المؤكدة الراسخة التي لا تقبل احتمال خطأ ما تثبته أو صحة ما تنفيه، إذ ليس لمسألة ما تدور حولها محاجّة حقيقة واحدة أو مطلقة، بل لها حقائق متعددة أو متدرجة، وعلى الأدلة أن ترجح إحداها على الأخرى، أو أن تصل إلى ما هو أقرب للصواب" (4)

وحد الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي؛ لأن طابعه الفكري مقامي اجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجيهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة علمية إنشاءً موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا حدلي؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوعه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة، وهو أن تطوى في انتقالاته الكثير من المقامات والكثير من النتائج، وأن يفهم المتكلم المخاطب معاني غير تلك التي نطق، وتعويلا على قدرة المخاطب على استحضارها إثباتا أو إنكارا كلما انتسب إلى مجال تداولي مشترك مع المتكلم. (5)

وفي الحقيقة لقد خاض النقاد الحجاج من ناحيتين هما، الأولى: ما يُعنى بدارسة العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وما تحمله هذه العلاقة من استعمال آليات الإرسال ومراعاة حال المتلقين، أما الثانية: فالحجاج عنهم بنية نصية، وهنا يتم التركيز فقط على الجوانب اللغوية. (6) ، وهذا التركيز على الجانب اللغوي جعل الحِجَاجَ يظهر بمظهر تواصلي، من خلال ما يقوم به في العملية التواصلية، إذ أنه: "يأتي كشكل من أشكال التواصل والتخاطب والحوار". (7)

3- الحِجاجُ عند اليونانيين القدامى:

ظهر الحجاج في الثقافة اليونانية القديمة قويا؛ نتيجة للانفتاح الديمقراطي الذي شهدته الحضارة اليونانية والذي حمل لقدماء اليونان " السفسطائيين، سقراط، أفلاطون، أرسطو...) وعيا للتنظير لفنّي الخطابة والجدل، مبينين من خلالهما استراتيجية الإقناع، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج نفسه. وسوف يكون أرســـطو محل اهتمامنا، لأنه علم بارز من أعلام البلاغـــة، ومحطة فارقة في تاريخها الطويل، فقد جمع شوارد البلاغة اليونانية القديمة، وخلّصها من الآثار السلبية التي أحاطت بها في بدايتها الأولى مع السوفسطائيين والفلاســـفة المثاليين الذين

حصروها في صناعة الكلام المغالط وكَشْفِ الحقيقة، وجعلها آلة استدلالية، وتقنية حجاجية قادرة على الكشف عما يمكن أن يكون مقنعا أو قابلا للصواب. ويرجع تميز البلاغة عند أرسطو إلى عاملين رئيسين:

أولهما : تميّز شخصية أرســـطو وعمـــق رؤيته وشمولية معرفته، فقد تهيأت له ظـــروف كثيرة جعلته واحدا من عظماء المفكرين، وفاتحا لكثير من المغلقات العلمية، ولذلك لقب " بالمعلم الأول " تقديرا لريادته العلمية ودلالة على ما تميّز به من سبق علمي واتصفت به أعماله وجهوده العلمية من ابتكار وتميز. (8)

ثانيا : خصوصية المجتمع اليوناني، لم تخلق البلاغـــة الأرسطية من عدم، ولم تولد كاملة عند أرسطو؛ ولكنها تولّدت من تفاعل عوامل كثيرة اجتماعية وسياسية وفكرية ساعدت على تثبيت سلطتها في المجتمع اليوناني.

وقد فرض هذا السياق تركيز البلاغة على الفعالية القضائية، ثم السياسية مع إتقان الأساليب والحيل والتقنيات التي تساعد على الإقناع والغواية.

وعلى الرغم مما بذله السوفسطائيون من جهود في نشـــر الديمقراطية وتهيئ أجوائها وتمكين الناس من اكتساب أدوات تحقيقها، فقد واجهوا كثيرًا من الخصوم الذين لم ترقهم أفكارهم وأساليب في الجدل والحجاج، وخاصة من الفلاســـفة الذين "رموهم بالمظنّات والازدراء، واعتبروا ما يقومـــون به سببا مباشرًا ساعد على نشـــوء خطابة " بلاغـــة " سوداء بتعبير بارت" (9) ، قد بنى أرسطو بلاغته "على الجدل وأقامه على الدليل وعلى التركيب والتحليل النفسي(10) ، وقد ظهر هذا المنحنى واضحا في كتابه الخطابة الذي جمع فيه شـــوارد هذا الفن وحدد ملامحه وأصوله وبذلك يعد أرسطو رائد البلاغة الأوربية القديمة وواضع أسسها وقواعدها.

وفي الحقيقة أن أصول الحجاج عند أرسطو ترتبط نظريته بفهمه للبلاغة وتصوره لوظيفتها وعلاقتها بالإنســـان والوجود، فقد جعل من البلاغة تقنية حجاجية لما هو قابل للصواب وليس لحقيقة" (11) كما وسع حقل البلاغة وفتح مصراعيه على حقول أخرى لتشمل كل الأماكن التي "يستخدم فيها الحجاج، بخـــلاف صناع الكلام الذين حصروه في الحكمة، والأفلاطونيين الذين حصروه في النقاش الفلسفي، وبهذا أصبح للبلاغـــة وللمرة الأولى بُعدًا عاما عدا حقل الحقيقة، كما أصبح لها وللمرة الأولى نظرية منظمة، وهكذا لم تعد البلاغـــة تعرّف بأنها ببساطة فـــن الإقناع؛ وإنما "القدرة على الكشف بتفكر عند كل حالة عما يمكن مقنعا فيها ويكون ذلك بالتأكيد باستعمال تلك القدرة فعليا في كل المواقف التي تظهر الحاجة فيها للإقناع(12) ، ومن

المهم هنا أن نلفت الانتباه إلى قضية أساسية في الحجاج عند أرسطو تتمثل في علاقة الحجاج بمجالي الخطابة والجدل، فقد أكد أرسطو وجود الحجاج في الخطابة كما في الجدل فهو القاسم المشترك بينهما، على سبيل المثال من حيث إن الجدل والخطابة : قوتان لإنتاج الحجاج" [13]، وقد مـــيّز أرسطو بين ثلاث مستويات من الحجاج:

"الإبتوس، الباتوس، اللوغوس" في علاقتها بالأركان الثلاث للفعل الخطابي: الخطيب، المستمع، والخطاب.

الإبتوس Ethos الباث الخطيب : يصف الخصائص المتعلقة بشخصية الخطيب والصورة التي يقدمها عن نفسه.

الباتوس Pathos المتلقي : المستمع ويشكل مجموعة من الانفعالات التي يرغب الخطيب في إثارتها لدى المستمعين.

اللوغوس Logos الرسالة الخطبة ، ويمثل الحجاج المنطقي الذي يمثل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي، فيرتبط بالقدرة على الاستدلال والبناء الحجاجي" [14]

4ـ الحجاج عند العرب ـ الجاحظ أنموذجا :

لا شك أن الحجاج له دور مهم في الحياة العقائدية والسياسية في البيئة العربية والإسلامية، فضلا عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب البلاغي .

ولعل شخصية الجاحظ لهي خير دليل على رقي الحجاج في البيئة العربية، فقد ظهر الجاحظ مدافعا عن الحوار وثقافته محاولا وضع نظرية لبلاغة الحجاج والإقناع، يكون مركزها الخطاب اللغوي بكل ما يصاحبه من وسائل إشارية ورمزية.

والبيان عند الجاحظ يتسع ويضيق، ولكنه في كل الحالات هو البلاغة وهو الحجاج، إنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير... إنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي... لذا فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو البيان"[15] ، لقد كان للحدث الكلامي عند الجاحظ مكانة عظيمة، فهو أول مفكّر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقرر أن الكلام وهو المظهر العلمي لوجود اللغة المجردة، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه، بالإضافة إلى الناحية اللغوية، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر "غير اللغوية من روابط... وتحتل الوظيفة وهي في مصطلحه الغاية ومدار الأمر حجر الزاوية في هذا البناء؛ لأنها مولد اللحمة والهدف الذي تسعى هذه الأطراف إلى تحقيقه".[16] ، كما أن الكلام عند الجاحظ له

وظيفتان أساسيتان هما: الأولى؛ الوظيفة الخطابية وما يتصل بها من إلقاء وإقناع واحتجاج ومنازعة ومناظرة.

والثانية : الفهم والإفهام أو البيان والتبيين، فتحقيق التواصل لا يتم إلا من وجه الإفهام والتفهم"[17]

5- الحجاج في الفكر الغربي الحديث:

نوقشت نظرية الحجاج في الفكر الغربي الحديث من ناحيتين وهما: الجانب التداولي وهذا واضح مما أثر من أعـمال ديكرو، وجانب بلاغي محض وهو ما ظهر عند بيرلمان، فهذان الناقدان الكبيران لهما الفضل في إرساء النظرية الحجاجية الحديثة على الرغم من اختلاف توجهمها.

إن بيرلمان وتيتيكا في كتابيهما المنشور الخطابة الجديدة ينزلان الحجاج بين الخطيب وجمهوره، أي أن يكون هناك تفاعل بينهما، ونجد صلته بالخطابة الأرسطية واضحة، ويعرفان الحجاج بأنه: "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم".[18]

ومما يتبين لنا أن المتقدم على دراسة الحجاج في النص القرآني مثلا يجد بيرلمان وتيتيكا أضافَا بعدا عقليا على الحجاج أو الخطابة الجديدة، فقد أخرجا الخطابة من دائرة الاتهام بالتلاعب بالجمهور على نحو ما فهمها أرسطو وبعض تلامذته من العرب في القديم مثل ابن سينا "428هـ" وعلى نحو ما فهمها رولان بارت في بعض مقالاته... حيث يحاور الخطيب جمهوره، مثل الواقع، والحقائق، والقيم، وكيفية ترتيبها، ومثل المواضع أو الأفكار العامة المشتركة.[19]

وفي الحقيقة حاول بيرلمان وتيتيكا تخليـــص الحجاج من دائرة الخطابة والجدل على ما عرف عند أرسطو، كما حاولا تخليصَ الحجاج من بوتقة المنطق والأبنية الاستدلالية المجردة، وقرباه من مجالات استخدام اللغة الإنسانية مثل العلوم الإنسانية والفلسفة والقانون.

ولا شك أن الباحثـــين عنوا بدراسة اللغة وفقا لاتجاهين رئيسين: الاتجاه الشكلي الذي قعد العرب من خلاله لعلمي النحو والصرف، وتمثل عند الغربيين في اللسانيات الصارمة التي تعني بدراسة النظام اللغوي معزولا عن سياق التواصل الاجتماعي.

وهناك اتجاه آخر وهو الاتجاه التواصلي الذي يدرس اللغة من خلال المنجز اللفظي في سياق معين، وقد تمثّل هذا الاتجاه في مناهج كثيرة منها: تحليل الخطاب، اللسانيات الاجتماعية واللسانيات التداولية.

6- علاقة البلاغـــة بالتداوليـــة:

ربط الباحثون بين البلاغة باعتبارها "فن القول" بشكل عام مع مراعاة المتكلم، المتلقي، المقام، وبين مفهوم التداولية بوصفها "العلم الذي يعني بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي"[20] ، فإذا كانت التداولية هي دراسة لمناحي الكلام ـ دراسة اللغة في الاستعمال ـ فالبلاغة هي المعرفة باللغة أثناء استعمالها فهي فن القول، حتى إن بعض الباحثين من يقول: "البلاغة التداولية التي تقف مهمتها على مطالبة المتكلم بأن يعي مقامات مخاطبيه ومستوياتهم المختلفة".[21] ، ولم يتبلور الدرس البلاغي إلا في مجال النقد التطبيقي والدراسات القرآنية، وهذا ما زاد ارتباط أبحاث البلاغة بواقع استعمال اللغة وقوانين الخطاب، وهو المجال الحيوي للسانيات التداولية. ورب سائل يسأل ما هي مهام التداولية؟

المهام التي تركز عليها التداولية هي دراسة استعمال اللغة، فلا تدرس البنية اللغوية في ذاتها، بل تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة بالنظر إليها بأنها كلام محدد صادر عن متكلم محدد وموجه إلى مخاطب وفق لفظ محدد وفي مقام تواصلي محدد.

المبحث الثانـــي ــ الحجـــاج في القرآن الكريم:

البلاغـــة الحجاجية ترتبط بأمـــور كثيرة، فهي لا ترتبط باللغة والأدب فقط؛ بل ترتبط بعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والسياسة، والقانون، والمنطق، وكل شيء في الحياة، فهو العلم الذي يدرس الإقناع والتأثير في الفضاء العام، كما أشار إلى ذلك كثير ممن نظّروا لعلم الحجاج، فحينما أسألُ لماذا اخترت بلاغة الحجاج في القرآن الكريم في ضوء التداولية اللسانية الحديثة؟

أولا اخترت القرآن الكريم بالنسبة لنا هو كتاب العربية الأكبر، إضافة إلى ذلك أن جميع العلوم العربية والإسلامية خرجت من مشكاة واحدة، وهي مشكاة القرآن، زد على ذلك أن القرآن الكريم يمتاز بأمرين مهمين، الأمر الأول أنه كتاب باقٍ كما قال الله - تعالى- : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر،9) ، وهذا يدل على أن بقاء القرآن يدل على بقاء الشاهد، إضافة إلى أن القرآن يعد كتابا مقدسا لكثير من يدينون بدين الإسلام، أو ممن يعظمون عظمة الإسلام.

وهذا يضيف إلينا أمرا آخر وهو قديسة الشاهد، حينما نجد شاهدا دائما باقيا مستمرا عبر الزمن، ونجد في الوقت نفسه أن هذا النص نص مقدس، ويضيف إلينا أيضا مزية فوق تلك المزية، فضـــلًا عن ذلك أن القــرآن الكريم مهما بذلنا فيه ومهما اطلعنا عليه ومهما قرأنا، ومهما تحرينا أن نصل إلى مراده، فهو كتاب لا يخلق عن كثرة رد، دوما يضيف إلينا جديدا، وأنك ضعيف قاصر العقل، ومحدود العلم، وأنك إنسان في كل الأحوال، يقول الله - تعالى- : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ (آل عمران،9)

وسوف نتناول أمور عدة، نتكلم عن لفظة حجاج، ومرادفتها في القرآن الكريم، وسوف نتحدث عن البلاغة والتواصل والحجاج، ونتكلم عن الحجج المختلفة، والحجج الأربعة الكبرى التي وضعها فيليب بروطون، ونتكلم عن حجة التماثل،.... التشبيه الحجاجي والمجازي الحجاجي، والكنى الحجاجية، وحجة التأطير ومتعلقاتها في البلاغة العربية القديمة، وسنتحدث عن حجج شبه المنطقية، والتكرار، وحجة التعريف، وعن حجة المغالطات المنطقية، وعن حجة الوصل والفصل، وعن حجة السلطة بالشهادة، وعن القيم المشتركة، والتأثير من خلاله في الناس عن طريق القيم والرأي بصوره المختلفة، ولكن قبل كل شيء نطرح سؤالا مهما وهو:

هل القرآن يدعو إلى الحجة؟ هل فيه أدلة وبراهين؟ وهل فيه حجج واستدلال؟ هل فيه بينة؟

نعم، القرآن فيه بينة وقد دعا إلى إعمال العقل، وصاحب العقل هو الذي يذكر لك الأدلة، أما صاحب الخداع والكذب لا يعرف الدليل، فالقرآن من أوله إلى آخره كتاب يبنى على أدلة قاطعة، لكن لمن يفهمها. قال – تعالى- : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ (محمد،24) ، فالقرآن لا يريدك أن تنظر إلى الظاهر ولا تقف عند الباطن، ولكنك تتعدى الظاهر والباطن، فتكون في دبر المعاني، أن تنظر إلى عمق العمق، وأن تصل إلى ما وراء الوراء، هذه هي نظرة القرآن، نظرة عميقة لأُناسٍ يمتازون بالعقل والصفاء، عقلٌ فيه انضباطٌ، وخُلـــقٌ فيه صفاء روح، وسلوكٌ منضبطٌ، فالقرآن يدعو إلى جمال الروح والفكر والوجدان، يدعو إلى الجمال في كل شيء، زد على ذلك قيمة حجاجية رائعة.

فالآليات الحجاجية التي يُستعانُ بها في الحوار الحجاجي وفي الكلام مع الناس في النقاش وفي الجدال والخصام والنزاع والاستدلال هي" لام، إنْ، أنْ، من أجل، المفعول لأجله، حتى عسى، الجملة الخبرية، الباء، النعت، البدل، كي، عن"

إن الحجاجَ جزءٌ من البلاغة، وإن قلت هل هو جزء من البلاغة القديمة؟ نعم، هو من البلاغة القديمة، والحديثة- أيضا- ، فالحجاج يعد موروثا وابنا شرعيا للبلاغة كالأسلوبية تماما.

والحجاج يأخذ بعض موضوعاته من علم المعاني، والبيان، والبديع، وإن كان من القدماء من عدّه في المعاني إذ أنه يهتم بالحال ومقتضياته وسياقاته وأحواله وحاجاته، فكما قيل في البلاغة إنها علمٌ يهتم بالمقام، وقالوا لكل مقام مقال، ولكل حدث حديث.

ومن الذين وضعوا الحجاج في علم المعاني بهاء الدين السبكي، هذا في البلاغة القديمة، وإذا نظرت في البلاغة الحديثة وجدت أن الحجاج يهتم بعلم النحو والقواعد، وقال عبد القاهر الجرجاني : (أنَّه لا معنى للنظم غيرُ توخِّي معاني النحوِ فيما بينَ الكَلِم، قد بلغَتْ في الوضوح والظهورِ والانكشافِ إلى أقصى الغايةِ، وإلى أنْ تكونَ الزيادَةُ عليه كالتكلُّف لِمَا لا يُحْتاجُ إليه، فإنَّ النفْسَ تنازعُ إلى تتبُّعِ كلِّ ضربٍ منَ الشبْهَةِ يُرَى أنه يعرضُ للمُسلمِ نفسِه عند اعتراض الشكِّ) [22] ، المعاني يهتم بعلم النحو، وعلم النحو فيه أصول كلية لضوابط الكلام، حكم تعرف به الإعجام والإعراب، فعلم النحو أيضا تجد فيه بعض الآليات الدلالية التي يستعان بها في فهم المرامي، فكما نعلـم أن هناك حروفا نسميها حروف المباني، وحروف المعاني، وحروف المباني ألف باء تاء ثاء... يقال لها ألفبائية، أو الهجائية والأبجدية وضعها نصر بن عاصم للتسيير والتسهيل على المتعلمين. وأما الحروف الأبجدية الثمانية والعشرون حرفا، " أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ " هذه الحروف ليس محل دراستنا؛ بل محل دراستنا يهتم بحروف المعاني، مثلا في كتاب الجني الداني في حروف المعاني للمباني للمرادي، رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقـي.

وفي حروف المعاني نجد بعض الحروف التي تهتم بالحجاج أو التعليل أو الاستدلال أو البينة من هذه الحروف حرف اللام وهو حرف من حروف التعليل، ففي سورة يوسف قوله - تعالى - : ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾ (يوسف،52) ، هذا الأمر صدر عن يوسف صلى الله عليه وسلم، فيوسف يريد أن يبرئ ساحته، فهو يقول: لقد فعلت هذا الأمر ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته، ذلك لكي يعلم الجميع أني خرجت من السجن وما فعلت شيئا، وما اقترفت إثما، وما تجاوزت الحد فكرا أو سلوكا يختص بامرأة ذلك الرجل، فاللام هنا للتعليل "ليعلم".

وأيضا من الآليات التي يستعان بها في الفهم كلمة "إنّ" فهي من أدوات التعليل، ففي قوله - تعالى- : ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (سورة هود،46) وقوله - تعالى – أيضا - : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (يوسف،53) هذه الآلية تعيننا في الاستدلال.

فإذا نظرت في حروف الاستفهام أو الحروف التي يستعان بها في الاستدلال تجد كلمة "أنْ" ففي قوله- تعالى - : ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ (الأعراف،71-72) أن تقولوا للتعليل، أي : لئلا يقولوا، حتى لا يقول أحدكم إن الله لم يبلغني شيئا، فكل إنسان في قــرارة نفسه يعلم أن الله هو خالق هذا الكون.

ومن الكلمات التي يستعان بها – أيضا- للاستدلال كلمة "من" وهي حرف جر وتعليل كما في قوله- تعالـــى - : (**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا**) (نوح، 25)وقد ترتبط من بأجل كما في قوله تعالى: (**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**). (المائدة،32) ، و - أيضا - من الآليات التي يستعان بها في الحجاج القرآني "المفعول لأجله" كما في قوله تعالى: (**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**) (البقرة،19) وفي قوله تعالى من السورة نفسها: (**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**).(البقرة،109)، وأيضا نجد كلمة حتى وهي حرف نصب ومن حروف التعليل - أيضا، قال تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**).(فصلت،53)

ومن آليات التعليل كلمة "عسى" قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ**

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).(الحجرات،11) فعسى في هذه الآية للتعليل، وهذا تنوع في الأسلوب القرآني، لتعلو مع علو القرآن.

وأيضا من الآليات التي يستعان بها في الاستدلال والحجاج "الجملة الاسمية" قال تعالى: (... ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا...) (البقرة، 282) فعندما تريد أن تقرض أحدهم دينا يجب عليك أن تستشهد، واشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان **لماذا؟** أن تظل إحداهما الأخرى.

ففي الآية الواحدة قد تجد أكثر من آلية حجاجية تجد **"أن" "ذلك أقسط" "ذلك ليعلم"**.

ومن آلية الحجاج أيضا حرف الباء، قال تعالى: ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ).** (البقرة،61)

ومن مزايا القرآن الكريم أنك حين تنظر في حجاج القرآن تجد نفسك مرتبطا بالسياق كله، ومرتبطا بالموضوع جملة وتفصيلا، مرتبطا بالآيات والحقائق والوقائع، فأنت تنظر في القرآن دون قطع للنص، وهذه الآفة التي وقعت فيها البلاغة وجل العلوم، فقد اقتطعت النصوص من سياقها إلا القرآن الكريم، فالقرآن عندما ينعم النظر فيه ستجد النص في سياقه ونسقه وحاله وموضوعه من دون اقتطاع،

وأيضا من آليات الحجاج "النعت" قال - تعالى- : (**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**)(الفاتحة ،1-7)

في هذه السورة الصغيرة ستجد ثلاث آليات حجاجية قوله باسم الله، لماذا ليس باسم الشعب؟، وليس باسم فلان؟ أو باسم صاحبي؟ أو باسم من ساعدني وساندني؟... باسم الله؛ لأن الله هو الرحمن الرحيم، وهما تعليل كما أشار إلى ذلك أبو البركات محمد بدر الدين صاحب تفسير أبدع البيان في تفسير آي القرآن، فهي للتعليل، لماذا باسم الله؟ لأنه رب العالمين ومالك يوم الدين، وهذا نسميه حجة بالتعريف، تقول استمع للمهندس فلان؛ لأنه سيخبرنا عن أمر هندسي، أو استمع للطبيب فلان؛ لأنه يعطينا النصائح الصحية، وللخبير فلان... فكل واحد في مجاله هو رأس فيه، وله أن ينصح ويقول، فهو صاحب سلطة فيها، إنها حجة التعريف، فالحمد لله لماذا؟ لأنه رب العالمين، ولماذا باسم الله؟ لأنه الرحمن الرحيم. فالحمد بخلاف الشكر؛ لأن الشكر يكون عن

نعمة، من أسدى لكم نعمة فكافئوه، ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله، فالشكر مقابل للنعمة، أما الحمد مقابل النعمة أو بدونها، فالله له الحمد، فلله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين، **(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** (الجاثية،36)، وقوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (البقرة،4)عند المسلمين عبادة، وعند النصارى الله محبة، فالمحبة لها درجات. وقوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) (الفاتحة،5) لماذا الصراط؟ لأنه مستقيم بحجة التعريف، فالحجاج إذاً يرتبط بعلم المعاني والبيان والبديع، والبلاغة القديمة والبلاغة الحديثة، زد على ذلك أن الحروف الحجاجية مرتبطة بالنحو.

والحجاج عند فيليب بروطون ارتبط بأمور كلية وهي قضية السلطة، وقضية التماثل، وقضية التأطير، وقضية الافتراض المشترك.

1- الحجاج بالتماثل:

في قوله تعالى: **(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ)** (البقرة،16-18)، هذه الآيات تضرب مثالا تشبيهيا يقرب لنا الفكرة " صم بكم عمي فهم لا يرجعون" من ابتعد عن منهج الله فهو لا يسمع ولا يبصر ولا يسير، فلا يستطيع أن يتحرك في الحياة حركة منتظمة، فلا يستطيع أن يؤثر أو يتأثر أو ينفع أو ينتفع، فالذي يؤمن بالله ويسير في دربه ليس كمن عارض الله وسار في درب الظلمات، فهذا نسميه التماثل، فالفريقان الذي آمن والذي لم يؤمن، كالأعمى والبصير والسميع هل يستويان مثلا؟.

2- الحجاج بالسلطة:

يقصد بها المتخصص في مجاله، فأي متخصص في مجاله فهو صاحب سلطة فيه، فالطبيب صاحب سلطة والمهندس والحداد صاحب سلطة، فكل إنسان يتكلم في مجال اتقانه فهو صاحب سلطة فيه، فأنا أملك معرفة وأنت لا تملك معرفة، إذاً أنا صاحب سلطة، وهناك سلطة إيجابية وسلطة سلبية، إن قلت: أنا أملك وأنت لا تملك، فأنا أخذت منك السلطة، كقوله - تعالى- : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...**﴾ (البقرة، 29) فماذا كان رد الملائكة؟ أجابوا بأسلوب التأطير "تهويل أمر ما" ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...**﴾

فوضعوا إطارين، إطار ذكروا فيه العيوب، وإطار ذكروا فيه المزايا، قال الله - تعالى- : ﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ فأجابهم الله بالعلم أي السلطة.

وكذلك ورد في قوله - تعالى- : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا.**﴾ ..(مريم،41-42) ، وكأن والد إبراهيم نهره عن نصيحته له، فأنت يا إبراهيم صغير لا تعرف شيئا، فجاء الرد من قبل ابنه ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ فرد الله سبحانه بآلية السلطة.

3- حجة التأطـــــــير:

يقول الله – تعالى- : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ وكأن النسوة يقلن عنها: إن ذوقها ليس حسنا، فلم تجد إلا فتاها الخادم تراوده عن نفسه قد شغفها حبا، قد وضعت النسوة إطارا لهذا الأمر، فنجد أن امرأة العزيز غيّرتِ التعريف بيوسف " فقالوا تراود فتاها" ما الحل عند امرأة العزيز؟ وماذا فعلت؟ قال - تعالى- : ﴿ **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ فأصبح ليوسف ثلاث تعريفات فتاها، بشر، ملك كريم.

هذا هو التعريف، فلما أقروا بالتعريف الثالث ملك كريم، قال - تعالى- :﴿ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ (يوسف،28-32) إنها حجة التأطير، فأنا أضع إطارا تعريفياً لمن يحدثني إذا وجدت أحدا يلجأ إلى التعريفات لكي يغلبني في سبيل الحجج ألجأ إلى هذا التعريف، وأحاول أن أنقده وانقضه، نقد التعريف ونقضه في الوقت نفسه، ثم أضع تعريفا آخر أجعل الآخر يذعن لكلامي، وهذا ما نسميه بالتعريف التعاقدي.

4- حجة الافتراض المشترك:

نلجأ فيه للقيم أو للرأي أو للأصول، ففي حجة القيم مثلا قوله - تعالى- : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ (البقرة،60) فالكفر قيمة سلبية، ويقتلون النبيئين قيمة سلبية أيضا، وبغير حق قيمة سلبية أيضا؛ لأن في قتل بحق وبغير حق، وذلك بما عصوا قيمة سلبية أيضا، فالعصيان شيء سلبي، وكانوا يعتدون، فالاعتداء قيمة سلبية. إذاً القيم من آليات الحجج وتدخل في الافتراض المشترك.

فإذا أردت أن تسير في الحجاج يجب عليك أن تكون على دراية كاملة بهذه الألفاظ الأربعة الحجاج بالسلطة، وبالتماثل، وبالتأطير، وبالافتراض المشترك.

5- الحجاج بالتكرار:

قد يظن بعض الناس أن الحجاج يرتبط بالاستدلال فقط، ويتناسى أن الحجاج يرتبط ارتباطا وثيقا بالذاكرة وما يتصل بها من كل شيء، بمعنى أن الحجاج يصنع علاقة اتصال وثيقة بين المرسل والمستقبل، بين الخطيب والمستمع، وفي الوقت نفسه أن التكرار يؤثر في الذاكرة، ويصنع نوعا وثيقا بين المتكلم والمستمع أيضا، والنسيان من طبيعة البشر، بمعنى كل إنسان قد يتحدث ويصنع شيئا ما ولكن مع مرور الأيام ومع طول العهد ينسى ما فعل، أو ينسى ما قال، وذلك قد أكده المولى تبارك وتعالى(...أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) (طه،85) وقوله تعالى أيضا : ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ (طه،115) وذرية آدم في كثير من الأحيان ينسون، وطول العهد ينسي، كما قال شوقي:

اختلاف النهار والليل ينسي

إنك تريد أن تصنع علاقة وثيقة بينك وبين المستقبل، هذه العلاقة قد لا تصنع بكثرة المزايا بقدر ما تصنع بكثرة التكرار، فإن التكرار إقرار، وإن الكلام إذا تكرر تقرر، وإن في التكرير تقريرا، فالتكرار له تأثير قوي في الذاكرة، ومعلوم أن الذاكرة تبنى على ثلاثة أشياء: الترميز، والتخزين، والاسترجاع أو الاستدعاء.

فإذا كررت كثيرا وجعلت الكلام ذا ترميز منضبط ينتقل من الذاكرة قصيرة المدى، إلى متوسطة المدى، إلى بعيدة المدى، من الذاكرة اللحظية إلى الذاكرة الدائمة، فإنك بتكرارك تجعل الكلام مستقرا في العقول، والنفوس، والأفئدة.

ولذا فإن الله كرر في كتابه أشياء كثيرة، كرر حروفا، وكلمات، وجملا، وقصصا، تجد قصة نبي الله موسى وعيسى وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في غير موضع من كتاب الله، وتجد مثلا ﴿ **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ (الرحمن،12)وردت كثيرا في سورة الرحمن، وتجد هذه الآية وردت كثيرا - أيضا - ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر،16) وتجد هذه الآية مكررة - أيضا - ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (الشعراء،62) ، فقد يظن بعض الناس أن التكرار عيب، فإياك أن تحكم على كل التكرار بأنه عيب، فهذا خطأ وخلل وتعميم في غير محله، تلك مغالطة صريحة وواضحة لكل صاحب عقل وبصيرة، إن التكرار له تأثير كما قلنا، قد يكون للتعظيم، أو التهويل، أو للتقبيح، أو للتجميل، وهو أيضا للحجاج والاستدلال والإقناع.

فالتكرار تجده في علوم القرآن، والبلاغة، والمنطق، والفلسفة، والسياسة، والقانون، تجد تكرارا للقوانين في غير موضع، ونجد التكرار أيضا في الصور الإعلامية يُسَمّى في علم الإعلانات والإقناع اغتصاب الجماعات؛ لأنك تؤثر على جمهور كبير من الناس عن طريق التكرار، فالحملات الانتخابية مثلا تجد صورا لأحد المنتخبين في كل مكان؛ لأنه يريد أن يؤثر في الذاكرة، يريد أن يمحو من ذهنك كل شيء إلا صورته. فقد يرتبط التكرار بالصورة، أو اللفظ، أو الشكل، أو بالمضمون، أو بكل شيء. فالله سبحانه وتعالى صنع تكرارا في كتابه ليؤكد الصلة الوثيقة بين التكرار والحجاج. فتكرار القصص في القرآن ليرسخ فكرة ما، وتكرار الآيات يرسخ فكرة ما، فالتكرار ليس كله عيبا؛ لأن السياق إذا اختلف فإن التكرار له قيمة، والإضافة لها قيمة، والزيادة في الكلام مرة بعد مرة لها قيمة، إنها قيمة التكرار.

6ـ حجة الشهادة:

ليس كل الحجج تستعمل في كل وقت، بل إن هناك من الحجج ما تستعمل في بعض الأوقات، فالتعريف مثلا قد يستعمل في البيئة العلمية، والمنطق يستعمل مع الرياضيين وأهل الفلسفة والرأي، كذلك حجة الشهادة تستعمل في القانون، والفقه، والبيوع، فالله سبحانه يقول: **(...وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)** (البقرة،282) وقال تعالى أيضا: **(...وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ...)**. (البقرة،281) فحجة الشهادة أن تذكر ما رأيت في وقت ما بعينك، فهي حجة ذاتية آنية ملموسة، جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأراده النبي أن يشهد على أمر ما، فقال له الرسول: أترى الشمس؟ قال الرجل: نعم. فقال له الرسول: على مثل هذا فاشهد أو دع. حجة الشهادة تحتاج إليها في بعض الأمور، وليس هناك حجة قد تعينك وتخرجك من المأزق إلا حجة الشهادة، وقد تكون حجة الشهادة أصلا أصيلا من الحجج، في سورة يوسف يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ (يوسف،25،29)

وعندنا ما نسميه حجة الاستشهاد كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (الزمر،50) وقوله تعالى أيضا: ﴿.. كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ **مِنْ قَبْلِهِمْ** مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة،118)

7- حجة الكفاءة:

الكفاءة أصل أصيل، وركن من أركان الحجاج الواردة في القرآن الكريم، وهي صفة تكون في شخص ما "خُلقية خَلْقية" ذات شهرة وثقة من قبل الناس، بمعنى أن البناء العمراني: هل حكم المهندس فيه أولى أم حكم الطبيب أم المؤرخ؟ ستقول: حكم المهندس، لأنه متخصص في البناء. فالأصل في الكفاءة أن تسير بعلمك بالشيء، كما قال الشافعي:

عِلمي مَعي حَيثُما يَمَّمتُ يَنفَعُنـــي قَلبـي وِعـــاءٌ لَهُ، لا بَطـنُ صُنـــدوقِ
إن كُنتُ في البَيتِ كانَ العِلمُ فيهِ مَعي أَو كُنتُ في السوقِ كانَ العِلمُ في السوقِ

فالكفاءة تنقسم إلى أنواع : كفاءة نسبة. وكفاءة درجة.

فكفاءة النسبة إما ادّعاء أو وصفا، فقولي: أنا طبيب. فهذا ادّعاء مني. وقد يقول لك أحدهم: فلان هذا مهندس. فهذه كفاءة اتصاف؛ لأن الناس وصفوه بهذا الوصف، وللتوضيح ، قال- تعالـــى - : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة،30) هذه سلطة الكفاءة، فالله خاطبهم بصفات لا تملكها الملائكة، فقال إني أعلم ما تعلمون، فهذه سلطة كفاءة ادّعاء. وقوله - تعالى- : (قَالُوا **سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) (البقرة،32) فهذه كفاءة سلطة اتصافية، ومثلها أيضا قوله – تعالى- : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ (ال عمران،24) ، فهذه سلطة كفاءة سلبية، لأنهم لا يعرفون شيئا. وقوله تعالى – أيضا- : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة،111) فليس لهؤلاء برهن ولا دليل على كلامهم. وقد تكون الحجة من خلال الكفاءة التهكمية كقوله - تعالى- : ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ (الدخان،49

8- حجة التجربة :

هي جزء من السلطة (سلطة بالشهادة، سلطة بالكفاءة، سلطة بالتجربة) فالإنسان لا يتحصل على المعرفة إلا عن طريق مجالسة أهل العلم، وكما قيل: جالس تجانس، فالذي يجالس المحاربين يكون محاربا، والذي يجالس الشعراء سيكون شاعرا. وقد يتحصل الإنسان العلم عن طريق التوســم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ (الحجر،75) فالمتوسم هو الذي ينظر إليك من أعلى رأسك إلى أخمص

قدمك، ويعرف ما يدور في نفسك، وفي الحديث النبوي: (**اتّقِ فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله)** أو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم)**، فالتجربة هي أمر مضى واستحضرته عن طريق أمر آخر سابق أو مشاهد مشابه لأمر ما.

وقد وردت حجة التجربة في القرآن في عدة مواضع، منها قوله - تعالى- :﴿ **قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا...**﴾ (البقرة،25) فكيف عرف الناس أن هذه الفاكهة رائعة؟ بناءً على تجربة سابقة، فقد ذاقوا طعم هذه الفاكهة من قبل.

وقد تكون حجة التجربة إجبارية كقوله – تعالى - : ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة،259) فكيف وصل إلى كلمة "أعلم أن الله على كل شيء قدير"؟ مع أنه في البداية قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ الجواب: بناءً على التجربة. ومثله قوله تعالى أيضا: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ البقرة،260) فهذه - أيضا - حجة التجربة، ولكنها التجربة الاختيارية وليست التجربة الإجبارية. وأيضا وردت حجة التجربة في قوله - تعالى-: ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ (القصص،26) رب سائل يقول: كيف عرفت أنه قوي وأمين؟ الجواب: خبر الدلو وغض الطرف، وخبر إزاحة الصخرة الكبيرة.

الخاتمـــــة:

لستُ أدّعي أنّي أتيتُ بما لم يسبقني إليه الأوائلُ، وإنما أنا حلقةٌ في دائرةٍ لم ولن تنتهيَ، وقد اعتمدتُ على جهد من سبقني وأضع جهدي بين يدي من يلحق بي؛ ليتأملَه ويزيدَ عليه أو يقومَه، وقد أسفرتْ نتائجُ البحث عن الآتي:

. من النتائج التي توصلت إليها الدراسة عدم اقتصار الاحتجاج لفكرة أو موقف على حجة واحدة، فالقرآن الكريم يعمد في أغلب الحالات إلى حشد الحجج وتجميعها، ولا يكتمل حجاجه مع ذلك، ولا يتخذ شكلا منتهيا إذ يظل منفتحا أمام كل معنى يرمي إلى إقراره وتأكيده وتثبيته.

ـ ثراء بنية الحجاج في القرآن الكريم، فقد تعددت الحجج وتنوعت، فهناك الحجج المنطقية التي تؤسس على قواعد من المنطق، لكي تحتفظ ببريقها وقدرتها على الإقناع.

ـ وقد تحمل الحجج القرآنية المتلقي على الإذعان والتسليم، فلا حجة للمتلقي بأن يدفع الشبهة عن نفسه، فالحجج القرآنية حقائق خالصة لا لبس فيها ولا غموض، فهي تدعو المتلقي إلى الترغيب والترهيب وتتبع أوامر الخالق دون اعتراض.

ـ إن البلاغة العربية القديمة لم تراعَ الفروق بين أنواع الخطاب في التنظير البلاغي، ومن ثَمّ لم تأخذ نفسها بوضع أسس نظرية ينطلق منها البحث البلاغي مراعيا الخصائص النوعية لأنواع الخطاب على تباينها وتفاوتها.

ـ اشتمل القرآن الكريم على وسائل عدة من صور الحجاج بغية الإقناع والتأثير، فجاءت قصص الأنبياء فيها كوسيلة للتمثيل، ومنها حجة السلطة، والتأطير، والتجربة، والشهادة، والكفاءة، وغيرها من أنواع الحجج.

الهوامـــــــــــش :

ـــ القـــــرآن الكريم.

1- محمّد العبد، النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، صيف، خريف 2002م، العدد 60.، 44

2- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، المجلد الثاني، الجزء التاسع، د ت، مادة "ح ج ج "، 779)

3- محمد طـــروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الناشر للثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2005م.6

4- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.105

5- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2007م. ، 65

6- ثابتي، 2006، 286)

7- عشير، 2007، 17)

8- ماجد فخري، أرسطو المعلم الأول، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1977م 84

.9- حافظ إسماعيل علوي وآخرون، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة، 2010،8
10- مرجع سابق،8
11- أرسطو، الخطابة، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1986م، المقالة 1، الفصل 1356هـ.، 28
12- مرجع سابق،28
13- مرجع سابق،86)
14- طروس، مرجع سابق،18)
15- الجاحظ، مرجع سابق،81)
16- حمادي صمود، من تجليات الخطاب البلاغي، تونس، در قرطاج، 1999م.، 185
17- صمود، مرجع سابق،88
18- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، الناشـــر مسكيلياني، ط1، 2011م.، 164 .
19- مرجع سابق، 29.
20- حمادي صمـــود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، الناشر كلية الآداب بمنّونة، تونس، 2016م. 133،199.
21- عبدالمجيد،7
22- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1984م.،170 .
ـ عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007م.
ـ يمينة ثابتي، الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي، مجلة الخطاب، دار الأمل، الجزائر، 2006م. الجديدة، دار عالم الكتب الحديث، ط1، 2010م.